Enlightenment collection's
EISSN: 2830-8719 / ISSN:2716-7852
V:13, N°:3 – 2023, P.P : 192-207

سلسلة الأنوار
EISSN:2830-8719 / ISSN: 2716-7852
المجلد 13، العدد 3-2023، ص.ص: 192-207

الحس التاريخي والنسيان التأويلي

Historical sense and the Interpretive forgetfulness

القلي مُحَمَّد العيد

جامعة وهران 2 مُحَمَّد بن احمد / الجزائر (elkolli.mohamedlaid@univ-oran2.dz)

تاريخ الاستلام : 2023/08/03 ؛ تاريخ القبول : 2023/12/08 ؛ تاريخ النشر : 2023/12/20

الملخص

يمكننا اعتبار العقل التاريخي عقلا أسيرا لأنه يسير وفق نمطا معينا مسطرا يصنعه الماضي ويوجهه المستقبل، إن الإنسان المتعلق بالماضي لا يمكنه أن يحقق فعلا حرا لأنه يتعامل مع حاضر جديد بماضي مختلف، إن الحرية هي أن نسير وفق ما يتطلبه الموقف الذي نحن بصدده. ولا نسير مع الموقف الآني إلا إذا تحررنا من قيود التاريخ وذلك عن طريق النسيان. فالنسيان عند الإنسان يمكننا جمعه في نوعين: نسيان يأتي مع مرور الزمن وتراكم خبرات كثيرة بعد خبرة ما واحتواءها ليصبح في اللاشعور لكن تتحول إلى قوة توجه الذات دون وعي. والنوع الثاني من النسيان هو نسيان إرادي هذا النسيان هو الأهم وهو الهدف من هذه الدراسة والذي أقصد به التحرر لأن التحرر هنا جاء على صيغة فعل وممارسة. وقد أعتمدت على المنهج التحليلي النقدي التأويلي انطلاقا من آراء مجموعة من الفلاسفة أمثال نيتشه وبول ريكور وإكهارت تول منتهيا إلى مفهوم جديد للنسيان والذي أسميته بالنسيان التاويلي أو النسيان عن طريق التأويل. فإن استطاعة النسيان هذه والتي يسميها بور ريكور كوجيتو القدرة والتي أحلها محل الكوجيتو الديكارتي والذي يربطه مع الغفران وهو الذي يثبت من خلاله الإنسان إرادته وحريته، فالذاكرة الأليمة قد تبقي الانسان في حدث مرير تجعله يغطي كل حياته ويصير ذلك الحدث أداة يقرأ بها واقعه ويتعامل معه أكثر مما يعيش حاضره. لكن السؤال المطروح هنا ما معنى أن ننسى؟ هل باستطاعة الذاكرة أن تنسى؟ كيف يمكننا اعتبار النسيان تأويل للماضي وفهمه بمعاني جديدة تبرره وتعيد خلقه وبعثه من جديد ليحرر الإنسان من كل ما يعيق تواصله مع الآخر؟

الكلمات المفتاحية: ماضي، ذاكرة، نسيان، حرية، تأويل.

Abstract

We can consider the historical mindset captive since it follows a certain lined pattern the past created and aimed by the future. A person who cherishes the past cannot make a free act as he treats the actual present with distinct past. Freedom is when we go after what is required by the situation we are facing. We do not face the immediate situation unless we are liberated from history limitations through oblivion. The latter to humans can be grouped into two types: the one that comes with time and several accumulated experiences after a certain experience especially when it is contaminated so that it becomes subconscious, but it turns into a force that guides oneself unconsciously. The second type is about forgetting controlled by will. This one is the most important, and this is the aim of this sand it is what I mean by liberation, because liberation here came in an acted and practised. I relied on the analytical, critical, and interpretive approach based on the opinions of a group of philosophers such as Nietzsche, Paul Ricoeur, and Eckhart Tolle, ending with a new concept of forgetting, which I called hermeneutic forgetting. This ability to forget, which Paul Ricœur calls power, which he replaces with the Cartesian Cogito that it is linked it with forgiveness to be proved later by will and freedom.The memory may keep a person in a bitter condition his entire life , and that event becomes a tool by which he mindly deals with the present moment through induction.But the real question here is what does it mean to forget ? is it possible for memory to forget such things? How can we consider forgetting an interpretation of the past that is understood through new meanings which justify, re-create, and resurrect it again? To free a person from everything that hinders his communication with one another.

Keywords :past, memory, forgetting, freedom, interpretation,

1.مقدمة :

انتهى أ.د بلعالية دومة ميلود في مقاله المعنون بتأويلية التاريخ وسؤال التواصل "عند بول ريكور" إلى أن التأويل هو نوع من الوجود وهو "الوجود مع الآخر" يقوم بواسطة تواصل الأجيال مع بعضها البعض (بلعالية دومة ميلود، 2017، من ص8 إلى 12)، لكن كيف يتم هذا التواصل؟ وكيف يمكننا تجاوز ما يعيقه؟

وانتهت الباحثة جازولي أمينة في مقالها المعنون ببول ريكور "من الأنطولوجيا إلى الهرمنيوطيقا" إلى أن خاصية كل تأويل هي الإنفتاح لها صلة وطيدة باللغة وبتعدد المعنى بهدف إكتشاف أبعاد جديدة للواقع (جازولي أمينة، 2017، من ص123 إلى 126)، لكن ما هو دور الذاكرة في هذا الانفتاح؟ وما هي الابعاد الجديدة التي يمكن أن تكتشفها؟

وانتهى الباحثان إبراهيم كراش وسلوى تيشات في مقالهما المعنون بمشكلة الذاكرة والنسيان في الانثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور إلى أن الذاكرة أساس الشهادة والأرشيف، وهي المورد الأساسي للتاريخ، وجدليتها مع النسيان هي الأكثر حدة في حالة التسامح السياسي والعفو (إبراهيم كراش وسلوى تيشات، 2023، من ص637 إلى 654)، لكن كيف تتم هذه الجدلية؟ وعن طريق ماذا؟

إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات والتي أوردتها في هذا المقال تحمل الإضافة المتواضعة التي ساهمت بها من أجل توسيع مفاهيمنا في مسألة النسيان، من خلال تناول جدلية التأويل والنسيان من مقاربات عدة مثل نيتشه (Friedrich Nietzsche 1844-1900)، وهيدغر (Martin Heidegger 1889-1976)، وبول ريكور (Paul Ricœur 1913-2005)، وغوسدورف (Georges GUSDORF 1912-2000)، وإكهارت تول (Eckhart Tolle 1948).

فمن أهم وظائف الفلسفة التشكيك في البديهيات ومن هذه البديهيات التي تكاد أن تتفق عليها الشعوب هي ضرورة البعد التاريخي في تشكيل هويات الأمم والأوطان، وأن النسيان مرض من أمراض الذاكرة التي تحول دون تحقيق الذات. وقد تماشت هذه القواعد مع الفترة الكلاسيكية من تاريخ الفكر الغربي لكن ومع ظهور فلسفات لا عقلانية ولا معيارية أصبح مبدأ الإختلاف مبررا، ومن أهم الفلاسفة الذين أحدثوا نهضة على الفكر الحديث فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche

1844-1900) بإعلانه أنه ليست ثمة حقائق وإنما مجرد تأويلات، فهل أضحى التاريخ مفيدا بالضرورة؟ وهل النسيان إلا إعاقة للتكيف مع العالم؟ مامعنى أن ننسى؟ هل باستطاعة الذاكرة أن تنسى؟ كيف يمكننا اعتبار النسيان تأويل للماضي وفهمه بمعاني جديدة تبرره وتعيد خلقه وبعثه من جديد ليحرر الإنسان من كل ما يعيق تواصله مع الآخر؟.

2. وطأة الماضي وهيمنة الذاكرة:

يرى نيتشه أن الإفراط في التاريخ يضر بالحياة وبالحاضر، ولهذا يمكن اعتبار تأملاته النقدية حول التاريخ دعوة إلى إعادة اكتشاف ملكة النسيان باعتبارها ضرورية للفرد والشعب والثقافة، لانها تساعد على تحرير الحاضر من وطأة الماضي، وتحرير الحياة من هيمنة الذاكرة (فريدريك نيتشه، 2019، ص6) فكثير من الشعوب لها ماضي مرير سواء تمثل في حروب دامية وقعت بين دولتين أو أكثر ما تسبب في عداوة وقطيعة بينها وهذا الإنفصال قد يدوم ويعيق التواصل بين البشر بل وسيؤدي إلى الاقصاء والتهميش والعنف، وإلى العيش داخل الذاكرة ونبذ الحياة والتحرر والتجديد، لكن أليس نيتشه كان في هذا الطرح متشائما من الماضي؟ وهل يكون الماضي دائما مريرا؟ ألا يحقق الماضي وحدة الأمم وانسجامها؟ من الواضح أن رأي نيتشه في هذا نسبيا وهناك الكثير من الانتقادات التي يمكن أن توجه له، واعتمادي على طرحه في هذه المسألة لا يعني موافقته بالضرورة وإنما من أجل تتبع تطور مفهوم النسيان من إحدى مقارباته.

تتناول إبستيمولوجيا التاريخ العناصر المكونة للعملية التأريخية من كل جوانبها سواء تعلق الحديث عن الحادثة أو الشهود أو المؤرخ بل وحتى طبيعة الكتابة التاريخية وأبعادها، وقد أضحى التأريخ لفترة طويلة من الزمن عاما في وحدة معقدة ومركبة ولكن ومع تطور الروح التحليلية ودقة الملاحظة توجه النقد إلى الكشف عن أنماط التاريخ فهل التاريخ في أصنافه واحدا أم متعددا؟ وإذا تعلق التاريخ بالذاكرة أشد تعلق وتعلقت الذاكرة بالذات سواء أكانت الفردية أم الجماعية ألا يصير الأمر هنا إرادي؟ يقسم فريديريك نيتشه التاريخ إلى ثلاثة أصناف أثري وعادياتي ونقدي وأن التاريخ النقدي يسمح لنا بالتحرر من ثقل الماضي خصوصا أمام خطر أن ينتهي التاريخان الأثري والعادياتي _في حال إساءة استعمالهما_ إلى نوع من الجمود (فريدريك نيتشه، 2019، ص7)

فالتاريخ الأثري يقدم لأمة ما أبطالها وإنجازاتهم السالفة، والعادياتي يقدم مجموعة من الخصائص التي تشترك فيها أمة ما، واستنادا إلى هاذين النوعين كثير ما تقع الأمم في التقاعس وأحسن مثال على هذا نحن مسلمو اليوم حيث وجدنا أنفسنا نتغنى بأجدادنا وأسلافنا لكننا لم نقدم ما يكفي ونكاد لا نؤدي دورنا.

لكن ومع هذا نيتشه لا يدعونا إلى الخروج من التاريخ، وإنما الخروج عليه من أجل بناء ثقافة جديدة وهو عبر ذلك لا ريب يعيد إلى الإنسان إرادته، ويحرره من قدرية أو ثيولوجيا تاريخية على الطريقة الهيجلية، وهو مايفسر تأكيده ملكة النسيان وضرورتها (فريدريك نيتشه، 2019، ص9) فما الفرق بين الخروج من والخروج على؟ الخروج من التاريخ مستحيل لأننا نخضع إلى الصيرورة لا محال ونتأثر بما سبقنا ونؤثر فيما قد يلحقنا، لكن الخروج على التاريخ يعني التعالي عليه وقهر الظروف والخروج على الحتمية التي تجعلنا نستسلم ومن هذا المنطلق نكون قد تأثرنا بالتاريخ لكن بشكل إيجابي لا سلبي ويمكننا هنا التمثيل بالشعب الياباني بعد قنبلتي هيروشيما وناكازاكي لما قهر الظروف وبدأ نهضة جديدة وهو في الصدارة اليوم.

أما الإنسان الذي يتكىء على ثقل الماضي الذي ما برح يزداد ثقلا، يضغط عليه هذا الثقل، أو يدفع به جانبا يثقل خطاه مثل عبء غير مرئي ومعتم (فريدريك نيتشه، 2019، ص13) ومن هنا نتوصل إلى خروج ثالث أسميه خروج عن التاريخ ويعني إقصاء الذات من المشاركة في بناء وتحديد المصير الإنساني وجعلها تابعة للآخر وبدل أن تلعب دور الفاعل تلقي بنفسها على كراسي المشاهدة وما أكثر هذه الذوات اليوم والتي تتمثل في الدول المتخلفة التي تأثرت بإحباطاتها الماضية لما وقعت فريسة الإستعمار وهي اليوم تركن للآخر وتستهلك مما ينتج وتشهر لما يبدع وتتوهم أنها سعيدة.

السعادة هي دائما نتاج لشيء واحد، أعني القدرة على النسيان، إنها ملكة الإحساس اللاتاريخي (فريدريك نيتشه، 2019، ص14) فالإحساس اللاتاريخي في هذا السياق ألّا نتصور التاريخ مستغرق لنا وإنما العكس أن نتصور أن الذات هي التي تملك التاريخ فمثلما تصدر الحادثة التاريخية في زمان ما ومكان ما عن الذات كذلك التاريخ وهو عبارة عن مركب لتلك الأحداث. لكن أي إنسان يصنع التاريخ؟

يجيب فريدريك نيتشه قائلا: "إن الإنسان المتفوق والمجرب من يكتب التاريخ" (فريدريك نيتشه، 2019، ص58) فالإنسان المتفوق هو الإنسان الذي بمقدرته أن يعيد كتابة التاريخ بمعاني جديد وهذا نوع من النسيان وطريقة في استعمال الذاكرة، إذ يمكنه أن يغير كل معاني السوء والألم إلى دلالات التجاذب والتسامح، وتجنب التنافر الذي يعتبر موت الإنسانية وفناءها من خلال فناء التواصل والحوار والإعتراف فاليوم نحن نكره النضج، لأننا نقدس التاريخ أكثر من الحياة (فريدريك نيتشه، 2019، ص62) فهل يمكن للنبتة أن تنمو وتنضج دون أن تتخلص من الشوكات الضارة؟ كذلك نحن البشر هل يمكننا أن ننضج دون أن ننسى الأحداث الضارة؟ التي أدت إلى الإقصاء ونبذ الآخر، إذن التاريخ في هذا المعنى هو قبر الإنسانية لأنه يبقيها في حدود الماضي. فلأي سبب يعود هذا الخلل؟

نحن أيضا نحمل آثار الآلام التي ألمت بإنسان العصور الحديثة بسبب إفراط في الدراسات التاريخية (فريدريك نيتشه، 2019، ص87) فالإنسان الحديث أصبح ينظر إلى الوراء أكثر مما يتقدم نحو الأمام وأصبح يدرك نفسه كجزء من كل تاريخي، وهنا أستحضر البيت الذي قاله الحجاج ابن يوسف الثقفي لما تولى شؤون العراق: ليس الفتى من يقول كان أبي إن الفتى من يقول ها أنا ذا فالتعلق بالماضي في هذا السياق يبقيه تابعا للآخر ويحيل دون تحقيق الإستقلال الذاتي وبالتالي الحرية.

وكثير مااستعمل الماضي كأداة لتقييد وأسر والسيطرة على الشعوب والأفراد وفي هذا المعنى وبالنسبة إلى فريدريك نيتشه إستعمله أفلاطون (Plato 427 bc-347 bc) « لما فرض على الأطفال أن يعتقدوا أنهم عاشوا من قبل في الحلم تحت الأرض لوقت ما، وأنه تم عجنهم وتشكيلهم من طرف سيد الطبيعة، ومن المستحيل التمرد ضد هذا الماضي، ومن المستحيل الإعتراض على أفعال الآلهة، قانون طبيعي لا ينتهك يقول: إن من ولد فيلسوفا يحمل في جسده ذهبا، ومن ولد جنديا لا يحمل سوى الفضة، ومن ولد عاملا يحمل الحديد والنحاس وكما أنه يستحيل خلط المعادن فإنه سيكون من المستحيل قلب نظام الطبقات » (فريدريك نيتشه، 2019، ص90) حيث تستمد الأسطورة قوتها من الماضي حتى ولو كانت من طبيعة غير معقولة ولا مبرهن عليها، وإنما يستغل فيها الراوي ثقافة المجتمع ومعتقداته من أجل إقناع الجمهور وتظليله في أغلب الأحيان، ولنلاحظ

المغالطة التي يحملها القياس الذي أمامنا لما أحل أفلاطون نظام الطبقات محل إستحالة خلط المعادن حيث جمع بين طبيعتين مختلفتين، فإن كل هذا يعود إلى الحس التاريخي الذي أراد أن يستغله لتكريس النظام الطبقي في المجتمع اليوناني، فكيف نتخلص من شبح التاريخ ونحن نخضع له في كل حين؟

3.الفوق تاريخي وامكانية النسيان:

يذهب نيتشه إلى أن لقاح ما هو تاريخي هو اللاتاريخي والفوق تاريخي وبهذه الكلمات نعود إلى بدايات اعتباراتنا وإلى نقطة ارتكازها، أي إلى كلمة لا تاريخي وأعني الفن والقدرة على النسيان (فريدريك نيتشه، 2019، ص92) فإن التاريخي بالنسبة إلى نيتشه يتماشى مع القطيع أو أخلاق العبيد لأن الحس التاريخي يوحي إلى الجماعة والإجماع وإلى مرجعية مركزية يعود إليها شعب ما أو أمة ما وتلزمهم هذه المرجعية بالتقيد والإتباع والإتفاق، وربط اللاتاريخي بالقدرة على النسيان أي القدرة على الولادة من جديد والتميز والتفوق وتقرير المصير خارج الحس المشترك والضمير الجمعي، لكن هل التاريخ يوحي دائما إلى معاني الحس المشترك؟

ينتهي هيدجر (Martin Heidegger 1889-1976) بعد تحليله لكلمة تاريخ إلى أن الدلالات _التي يحملها_ تتعلق بالإنسان من حيث هو ذات حاملة للأحداث (مارتن هيدجر، 2012، ص651) من هذا المنطلق نفهم بأن الإنسان هو الذي يحمل الماضي وليس العكس وبالتالي قد أعطى هيدجر كذلك المركزية للذات ومنها إمكانية التصرف في الأحداث وفهمها وتأويلها وإعادة صياغتها بمعاني جديدة فمعنى أن الذات تحمل الأحداث أنها هي التي تقرر وجودها من عدمها وكيفية وجودها فكل هذا يعود إلى الإدراك والقصدية ، فلا يمكن للحادثة التاريخية أن تتكرر كما وقعت في الماضي وإنما تتحول إلى ذاكرة فردية ثم جماعية وهذه الذاكرة التي تسمى جماعية هي التي تصنع الدازاين وهي مجموع التأويلات التي يعيش داخلها الإنسان ولهذا يذهب هيدجر إلى أن "الدازاين تاريخاني" لكن هذه الأطروحة لا تعني أن الإنسان يمثل "ذرة" لها وزنها قليلا أو كثيرا في آلية تاريخ العالم وأنه سيظل كرة تلعب بها الأحوال والأحداث (مارتن هيدجر، 2012، ص655) ومن خلال هذا يثبت هيدغر أن الإنسان مادام ليس من طبيعة فيزيقية وبالتالي لا يخضع

للكرونولوجيا التاريخ ولا يخضع للزمن الفيزيقي، وإذا كانت المادة تخضع لمبدأ خارج عنها وهو الجاذبية فإن الذات الواعية مبدؤها الحرية ولا تخضع إلا لذاتها وهكذا فهي تصنع ذاتها بذاتها وبالتالي أحداثها، فكل رواية يلقيها راوي ما عن الماضي هي صناعة وإعادة خلق وإبداع وكل قراءة لهذه الرواية تعتبر ابداعا آخر لمعاني أخرى.

يعد التاريخ مجموع الأحداث المدونة والمحفوظة، أما الذاكرة فهي الأداة التي نستعمل بها هذا التاريخ، وإذا فتحنا كتب التاريخ لحقبة ما تتميز بالحرج فنجدها تحمل ماضي مرير، لكن الذاكرة لا تقتصر فقط على بعد الماضي من الزمن فهي تفكر في أبعاد الحاضر الواقع بين الماضي والمستقبل «فماذا على الذاكرة ان تحفظ وماذا عليها ان تنسى في عالم يسوده العنف كما تبدى في القرن العشرين وهل يمكن الغفران من دون نسيان؟ أسئلة مخيفة امام هذا التاريخ الذي يلقي بعبء ضخم على الحاضر، فالتاريخ بقدر ما يعلم الذاكرة يجرحها» (بول ريكور، 2009، ص18) من خلال هذا يجد بول ريكور (Paul Ricœur 1913-2005) الحل في السرد الذي به يجمع الراوي الأحداث ويعيد ترتيبها ويختار منها ما يخدم حاضر ومستقبل الإنسانية عن طريق إنتقاء ماهو صالح لتحقيق التواصل، ويذكر ريكور قيمة الغفران وهو درجة عالية من التسامح لأن الغفران يدل على النوع التأويلي للنسيان الذي نركز عليه في هذا المقال وهو النسيان الذي به نجدد رؤيتنا للماضي ونعيد كتابته بمعاني أخلاقية تخدم الإنسانية، فعن طريق المخيال يمكننا أن نعيد كتابة حوار راقي سواء أكان بين الأديان أو بين الإيديولوجيات المتنافرة أو بين المذاهب والتوجهات المختلفة ليمثل هذا الحوار ما ينبغي أن يكون بين البشر ولهذا يركز ريكور على أن الحل يكون في التوصل إلى ذاكرة عادلة ذاكرة متوازنة بمعنى ما ذاكرة تستطيع ان تنسى وان تخرج من الحزن ومن التاريخ الشقي المعذب والمؤلم وأن تسامح وتغفر حتى من دون ان تنسى بالضرورة (بول ريكور، 2009، ص18) فإن مايجعل الانسان حرا هو أن يستعمل ذاكرته لا أن تستعمله هي، وأن يكون فاعلا لا منفعلا وبهذا يكون حرا فأنا الذي أختار ما أتذكر وأنا الذي أختار ما أنسى وأنا الذي أختار ما لا أتذكر وما لا أنسى.

إن القضية الكبرى التي يندرج ضمنها موضوع النسيان هي مسألة علمية التاريخ، ولهذا علينا أن نبحث العلاقة بين طبيعة التاريخ والنسيان، لأن هذه الطبيعة تمثل السياق العام الذي تندرج

ضمنه كل المسائل الجزئية الأخرى بما فيها المنهج الذي ندرس به النسيان، يقول بول ريكور وهو يعرض المجال الذي يدرس ضمنه موضوع النسيان: أما القسم الثالث، فيبلغ الذروة في التأمل حول النسيان، وهو يدخل ضمن إطار تأويلية للوضع التاريخي للبشر الذين هم نحن (بول ريكور، 2009، ص28) ومن خلال هذا نجد أن ريكور يعالج قضية النسيان بالمنهج التأويلي ذلك أن النسيان يدخل في نطاق الإدراك والقصدية والشعور والتذكر، لكن الصعوبة التي يمكن أن نواجهها في هذا الموضوع هي علاقة التأويل بالمناهج الأخرى كالتفكيك فلما نجد أنفسنا أمام واقعة تاريخية ما بكل عناصرها التي تكونها بما فيها العنصر البشري الذي يعتبر صانع هذا التاريخ وهو الذي يكون بمثابة المؤلف لنص ما، فماذا عن المؤول أن يفعل؟ وكيف يستمد معنى هذه الأحداث؟ هل يأخذ قصديات الأشخاص بعين الإعتبار؟ أم أن هذه الأحداث تحمل معاني مختلفة تعود إلى فهم المتلقي؟ فإشكالية تمثل الماضي (بول ريكور، 2009، ص28) هو الإشكال الذي يمثل جوهر البحث، وهو الذي نحاول من خلاله الإجابة عن كيفية فهم الماضي وكيفية تمثله وكيفية إستعماله.

يمكننا تحديد وظائف الذاكرة من ثنايا طبيعتها، وتحديد طبيعتها يكون من خلال نظرتنا للإنسان، فما الإنسان؟ هذا الكائن المعقد المتشابك الأبعاد؟ هذا الكائن المجهول إلى حد الآن؟ الذي ينهمك في اكتشاف العالم من حوله وعجز على إدراك ذاته، هل ذاكرته من طبيعة مادية؟ تقتصر على التسجيل والإسترجاع؟ هل هي خزان مادي خالص؟ إن الذاكرة وإن اختزلت إلى استذكار (بول ريكور، 2009، ص33) فإن لها علاقة وطيدة بتحديد هوية الذات، وهي في نفس الوقت تستعمل لتنسى وتتحرر من الماضي الثقيل، إذن سيترتب على هذه المقدمات الإقرار بأن الذات تتحرر من ذاتها بذاتها وقد كان أرسطو (Aristote 384 bc-322 bc) يعتبر الذاكرة على أنها زمان (بول ريكور، 2009، ص34) بل وإن السر في إدخال النسيان التأويلي في تحرير الإنسان من قيود الذاكرة هو إدخال مفهوم جديد للزمن من طرف بول ريكور وهو الزمن السردي، أنظر كيف ساهم في إرساء مركزية الانسان وتأكيد قدرته على التحكم في وجوده ومصيره، إن هذا النوع من الزمن يسمح للإنسان أن يخلق حاضرا جديدا بماضي قديم وهو إعادة كتابة تاريخ متسامح عن طريق السرد بإعادة تاويله نحو الأحسن، فالنسيان في هذا السياق هو التحرر من الزمن الفيزيائي التي يعرض لنا الحدث كما هو ويحوله من اللاانساني إلى الإنساني، ومن هذا الباب يمكننا تغيير رؤيتنا نحو

النسيان بعدما كان يُفهَمُ في الأول أن ما محي أو تعذر طبعه فإننا ننساه أي أننا لا نعرفه (بول ريكور، 2009، ص38) فقد كان يُنْظَرُ إلى النسيان بمعنى اللامعرفة وهكذا نفهم أنهم كانوا يظنون أن الذي لا يعرف فهو أسير الجهل وبالتالي النسيان كان عدو الحرية، وهذا ما شاهدناه في فلسفة أفلاطون الذي كان يعتقد أن الفضيلة هي التذكر وأن النسيان هو الرذيلة، ربما يصدق هذا الحديث في مجال الفيزيقا لكن في عالم الإنسان سيتغير الأمر تغيرا جذريا حسب طبيعة الموضوع خاصة ونحن نتكلم عن الماضي بمقاربة أخلاقية إنسانية فعالم الإنسان هو عالم الفهم، عالم التفسير، عالم التأويل كما كان يقول كانط (Immanuel Kant 1724-1804) «إننا لا نتلقى المعرفة تلقيا سلبيا وإنما نصنعها» ومن خلال هذا يتضح لنا أن الإنسان فاعل جوهري في عملية الإدراك يقول ريكور على لسان أرسطو وهو يوضح هذه العملية: يمكننا أن نقوم بقراءة مزدوجة لهذه اللوحة (بول ريكور، 2009، ص50) هنا يمكننا فهم أصل التأويل وهو القراءة بمعاني متعددة وإذا ربطناه بإشكاليتنا نحل الماضي محل الوحة التي يمكن النظر إليها بأوجه مختلفة فبقدر ما يكون هذا الماضي مؤلم يمكنه أن يكون مبشرا، وبناء على هذا يمكننا إستنتاج مسؤولية المؤرخ نحو القراء بل نحو الإنسانية فالمؤرخ هو الذي ينقل للجمهور الماضي وبالتالي هو الذي يصنع الرأي العام، ولهذا عليه أن يشعر بالمسؤولية ويتساءل عن الصورة التي ينبغي عليه أن يظهر فيها الماضي.

في حين أن القراءة المزدوجة للرسم _الماضي_ يحتوي ضمنا عملية مزدوجة داخل الصورة الذهنية، وكما نقول في أيامنا قصدية مزدوجة (بول ريكور، 2009، ص50) وهنا تفصح العلاقة بين الفينومينولوجيا والتأويل عن ذاتها أي في القصدية بما تحمله الذات من معاني ونذكر في هذا السياق ما أقره هوسرل (Edmund Husserl 1859-1938) بإتحاد الذات مع الموضوع على خلاف ما فصل ديكارت (René Descartes 1596-1650) بينهما، وعلى قياس هوسرل ليس هناك سرد لماضي ما منفصل عن ذات القارئ وبالتالي فإن الموضوع هنا يصنع الذات وهي تصنعه فيتلون الموضوع بما تحمله الذات من فهم ولهذا يقول بينيديتو كروتشه (Benedetto Croce 1866-1952) "كل تاريخ معاصر" بمعنى أن المؤرخ لما يؤرخ لوقائع ما فهو يعرض لقصديته أكثر مما يعيد كتابة الماضي كما هو وبالتالي هناك فرق شاسع بين الحدث كما وقع والحدث كما روي وتكمن المساهمة الرئيسية لأرسطو _في هذا_ في التمييز بين الذاكرة والتذكر (بول ريكور، 2009، ص53) إذن فعل التذكر

هو الذي يسلك مسلك التأويل، فالذاكرة تصنع وتتشكل في ظروف، وعملية التذكر تمارس في ظروف أخرى وكمثالا على هذا ذاكرة بعض الأوطان تشكلت في ظروف قاسية وأليمة كالذاكرة التي تشكلتال في أوروبا خلال الحربين، لكن الآن والعالم يعيش في ظروف أخرى جديدة تتطلب التعاون الاقتصادي والسياسي والحوار الديني والثقافي والتجاور أصبح على المؤرخين الأوروبيين مسؤولية استعمال عملية التذكر بروح جديدة تخدم هذه الظروف إذن عليها أن تنتقي ما هو صالح للحاضر وأن تنسى وتتجاوز ما يضر به ولقد حاول أفلاطون في كتابه السفسطائي أن يميز بين فنين للمحاكاة، الفن الخيالي وفن النسخ (بول ريكور، 2009، ص53) وإن النسيان فن من الفنون مثله مثل عملية الرسم التي لا تقوم بنسخ الطبيعة ومحاكاتها بالضرورة بل تحول تلك الشجرة العارية إلى ذات أوراق وتحول الأرض القاحلة إلى ذات زرع، فالفنان حينما يريد الهروب من واقعه لا يصعر خده للواقع وإنما يكمله ويعيد رسمه بشكل جميل لأنه إذا صعر خده فسوف لا ينساه بل يضحى عقدة لا شعورية تؤثر فيه، إذن ومن خلال هذا المنطلق نتوصل إلى أن هدف التأريخ هو إعادة بعث الأحداث الأليمة بثوب مغاير وهو فن من الفنون.

4.سجن اللاشعور وقوة الآن

لقد كان هيرودوت (Herodotus 484 bc -425 bc) يطمح إلى أن يحفظ من النسيان مجد اليونانيين والبرابرة (بول ريكور، 2009، ص603) وعلى خلاف ما سبق طرحه يظهر لنا من طموح هيرودوت هدف آخر للتأريخ وهو الحفاظ على الماضي وهذا ما صنفه فريدريك نيتشه في التاريخ الأثري وهذا الحفاظ هو الذي ينمي الحس التاريخي لأمة ما والذي يمكن في أغلب الأحيان أن يبقيها في أحلام مضت. لكن أليس هذا النوع من التاريخ ضروري لتعريف الشعوب بهوياتها؟

سيستند بول ريكور إلى التمييز بين المقاربة المعرفية وبين المقاربة البراغماتية للظواهر الذاكرية حيث وضع قسم تحت عنوان براغماتية النسيان (بول ريكور، 2009، ص608) ويقصد بول ريكور ببراغماتية النسيان الطريقة النفعية في استعمال الذاكرة سواء أكانت حسب متطلبات الوضع الذي نحن فيه أو ما يخدم البشرية بصفة عامة ويكون هذا نوع من النسيان وفي حد ذاته تحررا من سيطرة الذاكرة المريرة على الوضع البشري المتأزم لكن ليس بالشكل الإعتباطي ولهذا ينتقد

بول ريكور النسيان في التصور الفرويدي _من فرويد (Sigmund Freud 1856-1939) قائلا إن التحليل النفسي بالنسبة إلى الفيلسوف هو الحليف الموثوق للدفاع عن أطروحة ما لا ينسى. بل أشد قناعات فرويد صلابة كانت ان الماضي الذي قاسيناه لا يتحطم (بول ريكور، 2009، ص645) من خلال هذا القول يظهر لنا أن الكبت لا يطابق النسيان وإنما على الأصح يطابق التناسي وهذا الأمر لا يصلح لأن يكون حلا ولا يعتبر تحررا، بل على الخلاف قيدا وسجنا حيث تصير المكبوتات الموجه الأساس للفرد أو الجماعة، ويمكنني أن أفسر بهذه النظرية أعني اللاشعور سواء أكان الفردي منه أو الجمعي الكثير من العوائق التي تصيب العلاقات البشرية اليوم وبناء على هذا المنطلق يمكنني القول إن أغلب البشر اليوم يعيشون في سجن اللاشعور.

ويضيف بول ريكور مقتبسا من إحدى فصول فريدريك نيتشه "وقوة النسيان التي يتطلبها كل عمل تلك القوة عينها التي ستسمح لإنسان الذاكرة والتاريخ بأن يشفي جراحه، ويعوض خساراته، وبأن يعيد الأشكال المحطمة على ما يملكه هو نفسه" (بول ريكور، 2009، ص432) يقودنا هذا الحديث إلى حوار الذات مع ذاتها وإلى إعادة النظر فيما تحمله من ضغوط تكبل وتعيق تحررها، وإلى التصور الذي تحمله عن نفسها، وأن تعود إلى لحظة الوعي بالذات أي لحظة الآن وتتخلص من ترقب المستقبل وهذا ماكان يقصده فريدريك نيتشه بالحياة، فهذه الحياة هي نقطة الإنتباه التي نعيشها وهي المساحة التي تتسع إلى مجموع الممكنات التي بوسع الذات أن تختار منها ما قد تكون قادرة لتحمل مسؤوليتها من بعدها، وفي هذا المعنى يتساوى مفهومي الحرية والمسؤولية ويصبح كل مفهوم دليل على الآخر، ولهذا فإن ترميم الماضي وتعويض الخسارة لا يكون أبدا بالعودة إلى الماضي ولا بترقب المستقبل وإنما بالنسيان التحرري أي بقوة الآن بحيث ننظر إلى الماضي والمستقبل بالآن ولا ننظر إلى الآن بالماضي والمستقبل.

ويعقب بول ريكور على التاريخ العادياتي الذي ذكره فريدريك نيتشه قائلا "وما هو جديد ويولد لتوه يرفض ويهاجم" مثل هذا التاريخ لا يعرف سوى المحافظة وليس التوليد (بول ريكور، 2009، ص434) يشير بول ريكور إلى عائق من عوائق الحس التاريخي وهو التصدي والوقوف في وجه الإبداع وتقديس الخمول فكثير ما يبني البشر لأنفسهم سجنا مشيدا بالعادات والتقاليد ويقعون في ألفة لها حتى تصبح هذه الأخيرة هي مرجعية الإدراك بينهم، واستذكر في هذا السياق مثالا

مقتبسا من إحدى الأفلام الأمريكية المعنون بـ: BEING THERE (إخراج هال أشبي " Hal Ashby" ، 1979) والمستوحى من أطروحة مارتن هايدجر في الوجود، حيث تقوم إحدى الهيئات المسؤولة عن توزيع السكن بإخراج بطل هذا الفيلم Peter Sellers من سكنه الذي كان ماكثا في غرفة منه ولا يعرف إلا جهاز التحكم ومشاهدة التلفاز، وكان يأتيه مأكله ومشربه من طرف عجوز كانت تسكن المنزل ذاته فلما وجد نفسه في الشارع ولم يجد معنى لوجوده إلا أن يحاول التحكم في الآخر والكائنات بجهاز التحكم التي ألفها، حتى لما أخذه إحدى الأثرياء في أمريكا إلى قصره ومنحه أن يختار ما يشاء من خير لم يرد إلا جهازا للتحكم والنظر إلى التلفاز. في هذا العرض نلاحظ أن هذا الممثل كان أسير حياة ماضية فامتلكت وجوده ومعرفته وأصبحت تسيطر على افعاله حيثما كان.

فبعدما تغير البحث في الوجود مما كان عليه في الفلسفة الكلاسيكية حيث كان البحث معرفيا لما كان الهم الأساسي للفلاسفة هو التوصل الى مبدأ الكون وتفسير العلل التي تحرك الوجود ولما صار البحث في الوجود هو بحثا في الإنسان ذاته كونه هو الوجود الحقيقي صار الكلام عن وضعية هذا الكائن الواعي وعلاقته بالآخر، لكن بأي معيار نتعامل مع الآخر؟ وكيف يمكن للحكمة أن تخرجنا من الزمنية إلى السرمدية؟

يذهب غوسدورف (Georges GUSDORF 1912-2000) إلى أن الحكيم لم يعد له حديث عن التاريخ، بالمعنى الدقيق للكلمة. لم يعد له ماض، ولا حتى مستقبل، بقدر ما وصل إلى تحرير الروح في الحب الفكري لله (Georges GUSDORF, 1951, p265) يذكرنا كلام غوسدورف بمراتب الوجود عند المذهب الوجودي التي ذكرها عبد الرحمان بدوي في كتابه دراسات في الفلسفة الوجودية (عبد الرحمان بدوي، 45، 46، 47) حيث قسمها إلى ثلاث: الوجود في اللذة والوجود في الزمان والوجود في السرمدية وهذه الأخيرة هي أرقى مستويات الوجود وهي كما يبدو لي مستلهمة من الفلسفة الصوفية التي تدعو الى التحرر من قيود الزمان حيث ينتهي هذا الطرح إلى أن الحرية تكمن في التعلق بالله الذي ليس له زمانا ولا مكان وهذا نوع من الخروج من الحس التاريخي إلى الفوق زماني وكل المعايير هنا تصير صادرة عن تلك الحياة الأزلية والتي تصير كل أبعادها تمثل اللحظة الراهنة أو الآن ومن خلال هذا فقيمة الغفران بين البشر تصير مبررة، لما تنتفي الفكرة القائلة بأن

التاريخ هو محكمة البشرية فالآن يمثل تحررا للحياة الخاصة، من خلال تجاوزه لقيود الزمان والمكان (Georges GUSDORF, 1951, p146).

ومن أهم وظائف الفلسفة اليوم هي قدرتها على إبداع المفاهيم الجديدة ومن خلال هذا كذلك فإنها تفرض أهميتها وكلما صدر مفهوما جديدا تصدر عنه تحاليل وتأويلات وتفسيرات جديدة فبعدما رأينا العديد من أنواع الذاكرة كالحسية والجماعية نجد عند جورج غوسدورف الذاكرة العملية والتي ترجع أهميتها إلى إصرارها على تحقيق التحرر، وفرض الحياة الخاصة (Georges GUSDORF, 1951, p288) ويمكننا أن نفهم هذا النوع من الذاكرة على أنها الذاكرة القادرة على تكييف ماهو ثابت مع ما هو متغير ولتوضيح هذا يمكننا أن نقيس هذا النوع من الذاكرة مع ما يسمى بالمفهوم الإجرائي، حيث يمكننا هذا النوع من المفاهيم من خدمة البحث الذي نحن بصدده حسب الخصائص التي يتطلبها، كذلك الذاكرة العملية فهي التي تمكننا من السير وفق ما يتطلبه الوضع وهكذا يمكننا أن نكون أحرار ومرينين ونتجنب الإصطدام مع الواقع الجديد بماضينا القديم فالذاكرة العملية عوضا أن تستعيد الماضي في دقته فإنها تعيد إختراعه في هيئة جديدة من التحرر (Georges GUSDORF, 1951, p149).

إلى أين يؤدي بنا النسيان الإعتباطي؟ وهل هذا النسيان يعتبر تحررا؟ إن النسيان الإعتباطي والذي أطلق عليه مصطلح التناسي يؤدي إلى خلق كائن ثاني بخصائص أخرى تتجاوز الإرادة الخاصة وهو اللاوعي الجمعي حيث تتشكل إرادة ثانية توجه الأنا ولهذا يرى كارل يونغ (Carl Jung 1875-1961) بأننا لمجبرون للقول بأن اللاوعي لا يحتفظ بمواد شخصية فقط، وإنما بعوامل لا شخصية أيضا، هي عوامل جماعية على شكل مجموعات موروثة ونماذج بدئية (كارل يونغ، 1997، ص28) ويوحي لنا هذا الطرح بأنه يوجد ماضي مقدر على الإرادة البشرية وأننا مجبرون على العيش وفق نمط معين وما حياتنا إلا ردود أفعال للتاريخ ونتائج لمقدمات سالفة، وما البشر إلا نماذج محددة تتحقق شيئا فشيئا من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل وهكذا تنصهر الذات الفردية في الذات الجماعية ولا يصير معنى للإكتساب فكل ما يقدمه البشر وراثة النسيان الإعتباطي ولهذا إذا استشعر الفرد النفس الجماعية أو فهمها خطأ كملكية شخصية أدى هذا التفسير الخاطئ إلى تكبيل الشخصية بحمولة لا يستطيع تجاوزها (كارل يونغ، 1997، ص55) وهكذا نرى كيف ينخفض

مستوى الوعي لما يختلط الفردي بالجماعي ويتبنى الحس التاريخي فكل الحروب البشرية نتجت عن هذا أي عن حمية جماعية وإذا قلنا الجماعة نقول الماضي لأن مفهوم الجماعة لا يساوي عدد الأفراد فقد يتغير الأفراد ولا تنمحي الروح الجماعية الآتية من الماضي وهذا ما وضحه كارل بوبر (Karl Popper 1902-1994) في كتابه عقم المذهب التاريخي (كارل بوبر، 1959، 27، 28، 29) وتحدث عنه غوستاف لوبون (Gustave Le Bon 1841-1931) بالقدر الكافي في كتابه سيكولوجيا الجماهير.

تعد إشكالية الزمن في الفلسفة أعقد إشكالية إلى درجة وصل فيها إيكهارت تول (Eckhart Tolle 1948) إلى حد إنكار الماضي والمستقبل فلم يحدث شيء أبدا في الماضي، لقد حدث الآن، ولا شيء سيحدث في المستقبل سيحدث في الآن، عندما تتذكر الماضي ستتبع الذاكرة، إنك تفعل ذلك الآن، وما المستقبل إلا تصور وتخيل للآن (إكهارت تول، 2009، ص45) في هذا الكتاب "قوة الآن" يحاول المؤلف البرهنة على أن الإنسان عليه أن يولد من جديد في كل لحظة وأن يتحرر من الماضي، فالماضي يتحول إلى أفكار وعلى الذات ألاّ تكون أفكارها ولهذا علينا الفصل بين الفكر والأنا وبين السلوك والأنا فكل ما يوجد هي اللحظة والسر في هذا هو النسيان فالنسيان هو الذي يقطع ويفصل تلك الديمومة الذي تكلم عنها هنري برغسون (Henri Bergson 1859-1941) لكن النسيان لا يعني العدم في هذا السياق وإنما ذلك التغير الذي يقع بين حاضر وحاضر ولهذا فكلما أردنا أن نخرج عن حاضر لنجعله ماضي وموضوع لحاضر آخر لم نجد أنفسنا إلا نفكر في حاضرنا بحاضرنا ولحاضرنا "فقد تعتقد بأنك تحتاج إلى وقت أطول لفهم الماضي وتصبح حرا فيه، وبمعنى آخر، فإن المستقبل سوف يجعلك حرا تدريجيا من الماضي. هذا هو الوهم بعينه. فقط الحاضر بإمكانه أن يجعلك حرا من الماضي" (إكهارت تول، 2009، ص79) ويعني هذا أننا نتحرر باستمرار عن طريق الحضور المستمر وهذه هي قوة الآن أو قوة النسيان.

5. خاتمة:

إن الإفراط في الحس التاريخي هو سبب المآسي البشرية، وهو الذي يبقي الإنسان خارج دائرة الحياة التي هي الآن، ويقذف به إما إلى الماضي أو المستقبل، ولهذا فإن التعالي عن التاريخ

أمر ضروري ولا يكون هذا إلا بإعادة اكتشاف ملكة النسيان لكن ليس النسيان بالمعنى الكلاسيكي الذي يساوي الجهل ولا بالمعنى المرضي والذي يتمثل في الكبت، وإنما بتأويل الماضي وإعادة بعثه بثوب جديد فالنسيان هو فن من الفنون الجميلة التي تكمل الواقع وتجعله منسجما وقابلا للعيش، لأن الإنسان هو الذي يملك الماضي وليس نتيجة له وكل هذا العمل يعود إلى الذاكرة المتحررة التي تتذكر بواسطة النسيان ويلعب مفهوم الزمن الإنساني دورا تأسيسيا للنسيان التأويلي فالزمن الإنساني هو الذي يخرج الحدث الذي مضى من الزمن الفيزيقي ليضفي عليه الأبعاد الأخلاقية.

6. قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- فريدريش نيتشه، محاسن التاريخ ومساوئه، ترجمة رشيد بوطيب، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، الطبعة الأولى، 2019م.
- مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، 2012م.
- بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009م.
- *Georges GUSDORF, Mémoire et personne, les presses universitaires de France, paris, 1951*
- كارل غوستاف يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، ترجمة نبيل محسن، دار الحوار، الطبعة الأولى، سورية، 1997م.
- إيكهارت تول، قوة الآن، ترجمة مؤيد يوسف حداد، دار علاء الدين، الطبعة الأولى، سورية، 2009م.
- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، تر: عبد الحميد صبره، دار المعارف، ط.غ.م، الإسكندرية، 1959م.

المراجع:

- عبد الرحمان بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.غ.م، بيروت، ت.غ.م.

المقالات:

- بعالية دومة ميلود، تأويلية التاريخ وسؤال التواصل عند "بول ريكور"، مجلة المعيار، المجلد 8، العدد 1، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر، 2017.
- جازولي أمينة، بول ريكور من الأنطولوجيا إلى الهرمنيوطيقا، مجلة لوغوس، المجلد 5، العدد 8، جامعة السعيدة، الجزائر، 2017.
- إبراهيم كراش وسلوى تيشات، مشكلة الذاكرة والنسيان في الانثروبولوجيا الفلسفية عند بول ريكور، مجلة ألف، "اللغة، الاعلام والمجتمع"، المجلد 10، العدد 1، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2023.